التالي: ثمة بيت مكوّن من غرفتين، على الاقل، وثمة مطبخ، وممرّ يصل المطبخ بالغرف، وثمة سلّم يدل وجوده على ارتفاع البيت وعلى احتمال أن يكون مكوناً من طابقين، وثمة نوافذ وشبابيك، وباب خشبي ذو دفتين، وثمة احتمال لوجود غرفة ثالثة، يتبدّى من خلال إشارة مريم الى رغبة زكريا في «استبدال مقاعد الجلوس في الغرفة الاخرى»[٥٥]، غير ان الاستخدام الدائم لعبارة «الغرفة الاخرى» يعطي الانطباع بوجود غرفتين فحسب.

ومهما يكن من أمر فإن هذه المعطيات لا تدعنا نواصل الاعتقاد بأن هذا الذي نحن بإزائه بيت تنك أو طين ذو سقف واطىء، ولا سيما، أيضاً، أن الراوي والشخصيات لا يضيفون البيت الى التنك أو الطين، بل يستخدمون دائماً كلمة «البيت» لتسميته. وإنّ كنا نعتقد أن المواصفات الهندسية ليست دالّة على شيء في ذاتها، في سياق السرد الروائي، فإنها تظلّ دالة من خلال جدلية الحضور والغياب؛ أي حضور بعض المواصفات وتغييب بعضها الآخر، ومن خلال رؤية الشخصيات لمواصفات المكان، وعلاقاتها بالأحداث المروية. إنّ هذه المواصفات الهندسية، تعطي الانطباع، إن نظرنا اليها معزولة، أننا بإزاء بيت استثنائي بالنسبة لبيوت المخيم، غير أن النظر الى البيت من خلال علاقاته بالاحداث ووظائفه التي ينهض بها في الرواية، يؤكد أن استثنائية البيت لا تنبع من مواصفاته الهندسية بل من كونه مجالاً حيوياً لأحداث استثنائية يستحيل وقوعها، ولكنها تقع، ومن كونه مجالاً لانبثاق رؤية الشخصيات للمكان عبر مواقعهم المتباينة. إن زكريا ينظر الى أشياء البيت «بارتياح مقيت» بينما لا يرى فيه حامد غير «جُحر قميء» ولا ترى فيه مريم غير قبر تدفن فيه عمرها الضائع، ولئن كان الراوي يعكس المكنونات الداخلية لزكريا عبر نظراته، من خلال هذا التركيب اللغوي المتباين، لفظياً ودلالياً، ليعطي الانطباع الكافي عن رؤية زكريا للبيت، وعن رؤيته هو ـ أي الراوي ـ لرؤية زكريا، أو ليؤشر ايحائياً الى تناقضات مكبوتة داخل زكريا نفسه، أو غير ذلك، فإن المكان وأشياءه يصبحان مجالاً لوصف الشخصية لا لوصف المكان، وعلى هذا النحو، لا تنبثق رؤية حامد للبيت بوصفه جحراً قميئاً إلا من خلال المقارنة بينه وبين بيتهم الذي اقتلعوا منه يوم طردوا من يافا، ومن خلال طموح حامد الى إعادة جمع العائلة من جديد «في بيت أفضل من هذا الجحر القميء»[٥٦]. وعلى الرغم من ان مريم هي الاكثر صلة بالبيت، لأسباب عديدة، فإن رؤيتها له، تنبثق من خلال فكرة المقارنة مع البيت الذي كان، في الوطن الذي كان، ومن خلال احساسها المكثّف بمرور الزمن الذي كان بالنسبة لها «موتاً يعلن عن نفسه مرتين على الأقل»[٥٧]، وهكذا نجد ان أيّاً من حامد ومريم لم يولّدا أي شعور بالألفة مع هذا البيت، بينما بدا زكريا مستعداً لتوليد مثل هذا الشعور، وعلى العكس من هذا الاخير، فإن البيت بالنسبة لحامد، ولمريم، ليس غير مكان للموت المتربّص بهما، وليس غير مكان تتردد في جنباته ذكريات الموت، أو مكان للاعلان عن موت قد حدث للتو؛ فقد لاحظنا كيف أن البيت هو المكان الذي أعلن حامد فيه عن موت سالم، وكيف أن مريم تعيش فيه موتاً يعلن عن نفسه مرتين على الاقل، ولسوف نلاحظ من خلال تحليلنا لمحتويات البيت ووظائفها في الرواية، عبر تشابك علاقاتها، الكيفية التي يكون فيها البيت رديفاً للقبر، فيكون قبراً يحتوي الانسان والزمان.

أشياء البيت: الراديو، والأسرّة ـ النعوش

ليس ثمة من شيء من محتويات البيت الحاضرة في النص على غير صلة بالاحداث والشخصيات، سواء تلك الاحداث المستدعاة عبر الذاكرة وآلية التداعي، أو تلك التي تحدث الآن، أو الشخصيات الحاضرة التي تشارك في انفجار الحدث أو الغائبة التي هي، دائماً، على صلة به، وبأشياء البيت التي تحضر من خلاله. وتبدو الساعة؛ ساعة الحائط، وهي تمارس حضورها بكثافة عالية، بوصفها